خاتمة

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على رسول الله ومن والاه

اللهم إنى أسألك موجبات رحمتك وعزائم مغفرتك والغنيمة من كل بر والسلامة من كل اثم والفوز بالجنة والنجاة من النار ، ولا تدع لنا ذنباً إلا غفرته ، ولاهماً إلا فرجته ولا حاجه إلا قضيتها

بهذا الدعاء المأثور الذى كان الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه فيما روى يختم كل صلاة ، نبتهل إلى الله فى ختام هذا العمل العظيم الذى عكف عليه والدنا الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا رحمه الله ونسأله تعالى أن يتقبله منه ، وأن يجعله سببا لاستجلاب رحمته يوم لاينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

وقد عبر الشيخ رحمه الله فى مقدمة الجزء الأول من هذا الكتاب عن رغبته فى وضع ترجمه مسهبة لصاحب هذا المسند وراويه الأمام الأجل أحمد بن حنبل الشيبانى رحمه الله . فوضعنا الترجمه التالية وإن لم نكن أخص الناس بها أو أقدرهم عليها سالكين فيها الطريقة السلفية التى هى طريقة الكتاب معتمدين على المراجع الأساسية كتاريخ الإسلام للذهبي والمناقب لابن الجوزى والبداية والنهاية لابن كثير وما إلى ذلك . فنقول ، وبالله التوفيق .

الامام أحمد بن حنبل الشيبانى

مولده ونشأته :

هو أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الذهلى الشيبانى المروزى (نسبة إلى مرو) ثم البغدادى . قدم به أبوه من مرو وهو حمل فوضعته أمه فى بغداد وتوفى أبوه وهو بن ثلاث سنين . قال صالح بن الإمام أحمد « قال لى أبى ولدت فى ربيع الأول سنة أربع وستين ومائة قال صالح وجىء بأبى حمل من مرو فتوفى

أبوه محمد شابا بن ثلاثين سنة فوليت أبى أمه. وقال أبى وكانت قد ثقبت أذنى فكانت أمى تصير فيهما لؤلؤتين ، فلما ترعرعت نزعتهما ، فكانت عندها فدفعتهما إلى فبعتها بنحو من ثلاثين درهم » .

وينسب الإمام أحمد عادة إلى جده فيقال « أحمد بن حنبل » لأن جده كان أشهر من أبيه فقد كان واليا على سرخس — من أعمال خراسان — وناصر الدعوة العباسية أول عهدها ، واوذى فى ذلك فى حين كان أبوه « محمد » بتعبير ابن الجزرى « فى زى الغزاة » أى أنه كان من سواد الجند المجاهدين ، وإن روى عن الأصمعى أنه كان قائداً .

وأمه هى صفية بنت ميمونه بنت عبد الملك الشيبانى . فهى شيبانية كأبيه . وكانت هى التى كفلت أحمد وأدبته فأحسنت تأديبه . رحمها الله . .

وشيبان قبيلة ربعية عدنانية من صميم العرب ، تلتقى مع النبى صلى الله عليه وسلم فى نزار بن معد بن عدنان . عرفت بالهمة والنخوة والإباء والحمية . وانجبت الكثير من مشاهير العرب وفرسانهم فى الجاهلية والإسلام . وكانت منازلها بالبصرة . وكان الإمام أحمد إذا جاء البصرة صلى فى مسجد مازن ، وهم من بنى شيبان ويقول « انه مسجد آبائى »

كانت لوائح النجابة تظهر عليه من الطفوله ، فحفظ القرآن ودرس الفقه واللغة وروى عنه أنه قال « كنت وأنا غليم أختلف إلى الكتاب ثم اختلفت إلى الديوان وأنا ابن أربع عشرة سنه » وكان شغفه بالعلم واقباله عليه يحفزه للخروج قبل انبلاج الفجر فتأخذ أمه ثيابه وتقول حتى يؤذن الناس أو يصبحوا وأسترعت نجابته بعض الذين عرفوه وقتئذ قال الهيثم بن جميل « إن عاش هذا الفتى فسيكون حجة على أهل زمانه » .

طلبه العلم :

عند ما بلغ السادسة عشر جلس إلى القاضى أبى يوسف صاحب أبى حنيفة . وروى الحافظ الذهبى فى تاريخه عن الخلال أن الإمام أحمد كان قد كتب كتب الرأى وحفظها ثم لم يلتفت إليها . وشرح الله صدره للحديث فلزم هشيم بن بشير ابن أبى حازم الواسطى (ولد سنة ١٠٤ وتوفى سنة ١٨٣) الذى انتهى إليه علم

الحديث فى بغداد وكان هشيم ذا صمت وهيبة رفعه خلقه وعلمه وتقواه وورعه فوق مستوى المنبت والمنشأ . فقد كان أبوه بخارى الأصل أقام فترة بواسط كان فيها — فيما يقال — طباخاً للحجاج بن يوسف — قال حماد بن زيد « ما رأيت فى المحدثين أنبل من هشيم » وكان بعض المحدثين يقدمونه على سفيان الثورى — وروى عنه مالك بن أنس واثنى عليه .

لزم الإمام أحمد هشيما « أربع أو خمس سنوات وسمع منه كل ما عنده ، وحفظ كل ما سمعه وروى صالح بن الإمام أحمد عن أبيه قال « كتبت عن هشيم سنة تسع وسبعين ، ولزمناه إلى سنة ثمانين ، وإحدى وثمانين ، واثنتين وثمانين وثلاث ، ومات فى سنة ثلاث وثمانين وكتبنا عنه كتاب الحج نحواً من ألف حديث وبعض التفسير وكتاب القضاء وكتباً صغاراً وسأله ابنه صالح عن ذلك يكون ثلاثة آلاف قال اكثر » .

ومع هذه الملازمة ، فإنه كان يتردد على بعض مجالس المحدثين الآخرين فيروى أنه سمع من عمير بن عبد الله بن خالد قبيل موت هشيم وأنه سمع عن عبد الرحمن ابن مهدى وأبى بكر بن عياش .

وبعد موت هشيم أخذ الإمام أحمد يطلب الحديث من مختلف الشيوخ فى بغداد نحواً من ثلاث سنوات وفى السنة السادسة والثمانين بعد المائة بدأ رحلاته للسماع من شيوخ الامصار كما كان الدأب وقتئذ فرحل إلى البصرة خمس مرات كان يقيم فى بعضها قرابه ستة أشهر ، أو أقل ، ورحل إلى الحجاز خمس مرات لقى فى بعضها الشافعى قال الإمام أحمد « حججت خمس حجج منها ثلاث راجلا ، وانفقت فى إحدى هذه الحجج ثلاثين درهما ، وقد ضللت فى بعضها عن الطريق وأنا ماشى فجعلت أقول « يا عباد الله دلونى على الطريق » حتى وقعت على الطريق » ورحل إلى اليمن فسمع من عبد الرزاق بن همام ومكث بها سنتين ورحل إلى الكوفة ، ووعد الشافعى بالرحلة إلى مصر ولكن حالت دون ذلك الحوائل . ولم ينثنى الإمام أحمد عن طلب العلم حتى عندما تقدمت به السن وصار اماماً وسأله أحد الناس عن هذا الطلب « إلى متى وقد بلغت هذا المبلغ وصرت إمام المسلمين » فقال بن حنبل قوله المأثور « مع المحبرة إلى المقبرة » .

ولعل أعظم من أثر فيه من هؤلاء الشيوخ بوجه خاص هما هشيم والشافعى .

وعن الأول أخذ الحديث وما ينبغى جلسه من وقار وما يجب له من دقه ، وعن الشافعى أخذ أصول الاستنباط الفقهى .

وكان الإمام أحمد حريصاً على لقاء بن المبارك والسماع منه . فذهب إلى مجلسه سنة تسع وسبعين ومائة أول سماعه من هشيم فقالوا قد خرج إلى طرسوس وتوفى سنة إحدى وثمانين ومائة ، كما تأثر بسفيان الثورى وألم بحديثه قال عبد الرحمن بن مهدى عن أحمد « هذا أعلم الناس بحديث سفيان الثورى » وكان كل من سفيان الثورى وعبد الله بن المبارك مثلا فى الجمع ما بين العلم والعمل . . والقوة والورع . . وهى الصفات التى نجدها بارزة لدى بن حنبل . وكان الإمام أحمد يرغب الاستماع إلى مالك ولكنه مات قبل أولى رحلاته قال « فاتنى مالك فأخلف الله على سفيان ابن عيينه . وفاتنى حماد بن زيد فأخلف الله على اسماعيل بن علية » .

جلوسه للتدريس :

وعند مابلغ الإمام أحمد أربعين عاماً جلس للدرس والفتوى بعد أن عرف فضله وظهر علمه وقصده الناس للسؤال وكان مجلسه تلفه السكينه ويغشاه الوقار . نقل الذهبى فى تاريخه عن المروزى صاحب أحمد « لم أر الفقير فى مجلس أعز منه فى مجلس أبى عبد الله. كان مائلا إليهم مقصراً عن أهل الدنيا ، وكان فيه حلم. ولم يكن بالعجول بل كان كثير التواضع والوقار إذا جلس مجلسه بعد العصر لايتكلم حتى يسأل » وقدر الذين يحضرون درسه بالمسجد بعد صلاة العصر بقرابة خمسة الاف يكتب منهم خمسمائة ، كما كان له بالإضافة إلى درسه العام درس خاص يلقى فيه خاصة تلاميذه .

ولو حظ فى هذه الدروس أن الإمام أحمد بن حنبل كان يعود إلى مراجعة المكتوبة ، ولا يكتفى بمحافظته القوية تحرزاً واحتراساً وأخذاً بالأحوط والاثبت وحرصاً على الدقة قال ولده عبد الله « ما رأيت أبى حدث من حفظه من غير كتاب إلا بأقل من مائة حديث » وربما ذكر الحديث من ذاكرته فإذا أرادوا كتابته استمهلهم حتى يمليهم إياه من الكتاب قائلا الكتاب أحفظ شىء . وكان يحث أصحابه وتلاميذه على أن لايحدثوا دون كتاب ، وكان على بن المدينى لايحدث إلا من كتاب وقال « ان سيدى أحمد بن حنبل أمرنى أن لا أحدث إلا من كتاب » . وبقدر هذا التشديد فى كتابة الحديث النبوى كان الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه يرفض

أن تكتب فتاويه ويكره أن ينقلها أصحابه عنه . قال أحمد بن الحسين بن حسان « قال رجل لأبي عبد الله أريد أن اكتب هذه المسائل فإني أخاف النسيان فقال أحمد بن حنبل لا تكتب فإني أكره أن اكتب رأيي » وأحس مرة بإنسان يكتب ومعه الواح في كمه فقال لا تكتب رأيا لعلي أقول الساعة بمسألة ثم أرجع عنها غداً ويروى أن عبد الملك بن عبد الحميد الميموني المتوفى سنة ١٧٤ قال « سألت أباعبد الله عن مسائل تكتبها فقال أي شيء تكتب يا أبا الحسن فلولا الحياء منك ما تركتك تكتبها ، وأنه على لشديد والحديث أحب إلي منها قلت إنما تطيب نفسي في الحمل عنك . إنك تعلم أنه منذ مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم قد لزم أصحابه قوم ثم لم يزل يكون للرجل أصحاب يلزمون ويكتبون قال من كتب ؟ قلت أبو هريرة وكان عبد الله بن عمر[1] يكتب فقال لي فهذا الحديث فقلت له فما المسائل إلا حديث ومن الحديث تشقق » وربما أنكر نسبة ما يكتب من فتاويه إليه أو يذكر الرجوع عنها تثبيطا عن كتابتها . ولا يتراجع عن ذلك إلا في حالات خاصة كالتي وردت في المنهج الأحمد من أن أسحق بن منصور المروزي المتوفى سنة ٢٥١ نقل عن الإمام أحمد بن حنبل فلما أعلن الإمام أحمد رجوعه عن هذه المسائل جمع أسحاق تلك المسائل في جراب وحملها على ظهره وخرج راجلا إلى بغداد وهي على ظهره وعرضها على أحمد واحدة واحدة فأقر له بها وأخذه العجب منه . مما يدل على أن إعلان الإمام أحمد الرجوع أو إنكاره نسبتها إليه لايعود إلى خطأ وإنما المقصود به عدم حمل الناس على الالتزام بها لأنها اجتهاد منه ولأنه لم يكن يستجيز تدوين شيء إلا الكتاب والسنة سواء في ذلك فتاويه أو فتاوى غيره حتى وإن كان يقدرهم تقديراً كبيراً كعبد الله ابن المبارك والشافعي . وكان له في هذا نظر نافذ وحكمة بالغة وإن لم يأخذ الناس بذلك فجمعوا آراءه وجعلوها أصلا للفقه الحنبلي .

كما يلحظ أن الإمام أحمد رحمه الله لم يكن يحدث ابتداء ، ولم يكن هو الذي يستهل بالدرس . وإنما كان يرد على الأسئلة . فإذا لم يسأله أحد لم يتكلم . روى ابن الجوزي عن أبي حاتم الرازي « اتيت أحمد بن حنبل في أول ما التقيت به في سنة

---

(١) هكذا جاء بالأصل « المنهج الأحمد في تراجم أصحاب الإمام أحمد بن حنبل وهو مخطوط بدار الكتب المصرية ولعل صحتها عبد الله بن عمرو لأنه هو الذي كان يكتب وكان يطلق على صحيفته الصادقة .

ثلاث عشرة ومائتين ، وإذا هو قد أخرج معه إلى الصلاة كتاب الأشربة وكتاب الإيمان فصلى فلم يسأله أحد فرده إلى بيته ، واتيته يوماً آخر فإذا هو قد أخرج الكتابين فظننت أنه يحتسب فى إخراج ذلك لأن كتاب الإيمان أصل الدين وكتاب الأشربه يفرق الناس عن الشر فإن أصل كل شر من السكر » .

ولم يكن مجلس الإمام أحمد مجلس علم فحسب ، لأن شخصية أحمد بن حنبل نفسه لم تكن تقل عن علمه ، وكان الكثيرون يحتسبون الجلوس إليه ، والتعرف على هديه وخلقه والتأدب بادبه . وروى بن الجوزى فى المناقب عن بعض أصحابه « أختلفت إلى أبى عبد الله أحمد بن حنبل اثنتى عشرة سنة ، وهو يقرأ المسند على أولاده ، فما كتبت منه حديثاً واحداً وإنما كنت أميل إلى هديه وأخلاقه وآدابه » .

وهذه الملاحظات فى مجموعها تصور الشخصية الفريدة للامام أحمد من تشدد وتثبت فيما يتعلق بالكتاب والسنه . وعزوف وانصراف عن الناس مهما علت مراتبهم واعتبار العلم اداة لهدى الطالبين واجابة للسائلين والالتزام بالسمت والأدب والسكينة والتواضع ، والبعد عن ـ بل انتفاء ـ التشدق والزهو بالعلم والمعرفة . وأن يكون ظاهر المرء وباطنه ، علمه وعمله سواء وهى منازل لايقدر عليها إلا القله المصطفاة . وبحق قال الإمام يحيى بن معين — وهو من هو — « أراد الناس منا أن نكون مثل أحمد بن حنبل ، والله ما نقوى أن نكون مثله ولا نطيق سلوك طريقه » .

تقدير معاصريه له وثناؤهم عليه :

لقد كانت هذه الخلائق من العلم والعمل محل تقدير كل علماء عصره ، فشهدوا له وكتبوا عنه الكتب ، فأفرد البيهقى سيرته فى مجلد ، كما أوردها بن الجوزى فى المناقب ، واثبتها فى مجلد لطيف أبو اسماعيل الأنصارى . وأورد سيرته بإفاضة الحافظ بن كثير صاحب البداية والنهاية والحافظ الذهبى (أبو عبد الله شمس الدين محمد الذهبى) فى تاريخه مطولا ومسهباً والخطيب البغدادى فى كتابه «تاريخ بغداد» .

وفيما يلى بعض أقوال معاصريه عنه نقلا عن هذه المراجع . قال حرملة سمعت الشافعى يقول خرجت من بغداد فما خلفت بها رجلا أفضل ولاأعلم ولا أفقه من أحمد ابن حنبل . وقال على بن المدينى إن الله ايد هذا الدين بأبى بكر الصديق يوم الردة

وبأحمد بن حنبل يوم المحنة . وقال أبو عبيد إنتهى العلم إلى أربعة أفقههم أحمد وقال البخارى لماضرب أحمد بن حنبل كنابالبصرة فسمعت أبا الوليد الطيالسى يقول لوكان أحمد فى بنى اسرائيل لكان أحدوثة ، وقال السهيل بن الخليل لو كان أحمد فى بنى إسرائيل لكان نبياً ، وقال المزنى أحمد بن حنبل يوم المحنة وأبوبكر يوم الرده وعمر يوم السقيفةوعثمان يوم الدار وعلى يوم الجمل وصفين،وقال بشر بن الحافى بعد ماضرب أحمد بن حنبل أدخل أحمد الكير فخرج ذهباً أحمروقال الميمونى قال لى على بن المدينى بعد ما امتحن أحمد يامیمون ما قام أحد فى الإسلام ماقام أحمد بن حنبل فعجبت من ذلك عجباً شديداً وذهبت إلى أبى عبيد القاسم بن سلام فحكيت له مقالة على بن المدينى فقال صدق . إن أبا بكر وجد يوم الردة أعواناً وأنصاراً وأن أحمدبن حنبل لم يكن له أنصار ولا أعوان ثم أخذ أبو عبيد يطرى أحمد ويقول لست أعلم فى الإسلام مثله ، وقال اسحق بن راهوية أحمد حجة بين الله وبين عبيده فى أرضه . وقال على بن المدينى إذا ابتليت بشىء فأفتانى أحمد بن حنبل لم أبال إذا لقيت ربى عز وجل كيف كان . وقال الخلال سمعت أبا القاسم بن الجبلى وكفاك به يقول أكثر الناس يظنون أن أحمد إذا سئل كأن علم الدنيا بين عينيه . وقال إبراهيم الحربى رأيت أحمد كأن الله جمع له علم الأولين والآخرين ، وقال عبد الرزاق مارأيت أفقه من أحمد بن حنبل ولا أورع ، وقال المزنى قال لى الشافعى رأيت ببغداد شاباً إذا قال حدثنا قال الناس كلهم صدق قلت من هو قال أحمد بن حنبل ، وعن حجاج بن الشاعرمارأيت روحاً فى جسد أفضل من أحمد بن حنبل . وعن محمد بن ابراهيم البوشنجى قال مارأيت أجمع فى كل شىء من أحمد بن حنبل ، ولا أعقل ، وقال الحسين الكرابيسى مثل الذين يذكرون أحمد عندنا مثل قوم يجيئون إلى أبى قبيس يريدون أن يهدموه ، وقال يحيى بن معين كان فى أحمد بن حنبل خصال مارأيتها فى عالم قط كان محدثاً ، وكان حافظاً ، وكان عالماً ، وكان ورعاً وكان زاهداً وكان عاقلا وقال الذهلى اتخذت أحمد حجة فيما بينى وبين الله وقال أبوبكر محمد بن محمد بن رجاء مارأيت مثل أحمد بن حنبل ، ولا رأيت من رأى مثله . وقال سمعت قتيبة يقول إذا رأيت الرجل يحب أحمد فاعلم أنه صاحب سنة » .

هذه هى بعض أقوال معاصرين فيه ، وهى تدل على إعجاب شديد وتوقير كبير ، وفى بعضها مايفسح مجالا لتصور المبالغة ، لولا أن عمل الرجل نفسه وأثره فى تلاميذه

ينفى ذلك . فمن يحيا مثل حياة أحمد بن حنبل ، ومن يصمد صموده يوم المحنة ، ومن يخرج للناس مثل المسند ، ومن يطبع تلاميذه بطابع التقوى والصلابة فى الحق – وهى كلها حقائق واقعة – لا يستكثر عليه ماقيل فيه ، وعلى كراهة الأتقياء لأحاديث المديح والثناء . فإن يحيي بن معين ، عندما أكثر جلساؤه الثناء على أحمد بن حنبل وقال رجل لا تكثروا . بعض هذا قال « وكثرة الثناء على أحمد تستكثر ؟ لو جلسنا مجالسنا بالثناء عليه ما ذكرنا فضائله بكمالها » .

والحق أن شخصية الإمام أحمد بن حنبل وخلقه القوى وترفعه عن الدنايا وزهده فى زخرف الدنيا هو مالايقل قيمة وأثراً عن جمع الإمام أحمد المسند أو موقفه يوم المحنة ، لأنه أورث أتباعه هذا الخلق بحيث كاد أن يكون طابعاً عاماً يغلب عليهم ، وقد وصف أبو الوفاء بن عقيل الفقيه الحنبلى المتوفى سنة ثلاث عشرة وخمسمائة أصحابه الإمام أحمد بعد مرور زهاء ثلاثة قرون .

« هم قوم خشن ، تقلصت أخلاقهم عن المخالطة ، وغلظت طباعهم عن المداخلة ، وغلب عليهم الجد وقل عندهم الهزل وغربت نفوسهم عن ذل المراءاة . وفزعوا عن الآراء إلى الروايات وتمسكوا بالظاهر تحرجاً من التأويل وغلبت عليهم الأعمال الصالحة فلم يدققوا فى العلوم الغامضة ، بل دققوا فى الورع وأخذوا ماظهر من العلوم ، وماوراء ذلك قالوا الله أعلم بما فيها خشية من باريها » .

ونسب خمول المذهب الحنبلى إلى ورع أصحابه « هذا المذهب إنما ظلمه أصحابه ، لأن أصحاب أبى حنيفة والشافعى إذا برع واحد منهم فى العلم تولى القضاء وغيره من الولايات ، فكانت الولاية سبباً لتدريسه واشتغاله بالعلم .

أما أصحاب أحمد ، فإنه قل فيهم من تعلق بطرف من العلم إلا ويخرجه ذلك إلى التعبد والتزهد لغلبة الخير على القوم فينقطعون عن التشاغل بالعلم » .

فإذا كان هذا هو حال أصحاب أحمد بعد ثلاثة قرون من وفاته ، فلنا أن نتصور أثره فى تلاميذه ومريديه الذين جلسوا إليه وتأدبوا بأدبه وبحق قال تلميذه أحمد بن محمد بن هانى أبو بكر الأثرم « أحمد بن حنبل رضى الله عنه ستر من الله على أصحابه فينبغى لأصحاب أحمد أن يتقوا الله ولايعصوه مخافة أن يعيروا بأحد » ورفض تلميذه الآخر ابراهيم بن اسحق الحربى أن يقبل عشرة آلاف درهم أرسلها الخليفة المعتضد ،

فسأله أن يفرقها على جيرانه فقال للرسول عافاك الله هذا مال لم نشغل أنفسنا بجمعه فلا نشغلها بتفريقه . قل لأمير المؤمنين إن تركتنا ، وإلا تحولنا من جوارك ! » .

صفته وأدبه :

قال الحافظ الذهبي فى كتابه « تاريخ الإسلام » .

قال عبدالله بن عبدالرحمن الذهبي حدثنى أبى قال مضى عمى أبو ابراهيم أحمد بن سعد إلى أحمد بن حنبل فسلم عليه فلما رآه وثب قائماً وأكرمه .

وعن عباس النحوى قال رأيت أحمد بن حنبل حسن الوجه ربعة يخضب بالحناء خضاباً ليس بالقانى وفى لحيته شعرات سود ورأيت ثياباً غليظة إلا أنها بيض ورأيته معتماً وعليه ازار .

قال المروزى قال أحمد « ما كتبت حديثاً إلا قد عملت به ، حتى مر بى أن النبى صلى الله عليه وسلم احتجم وأعطى أبا طيبة ديناراً فأعطيت الحجام دينارا حين إحتجمت .

وقال ابن أبى حاتم ذكر عبد الله بن أبى عمر البكرى قال سمعت عبد الملك الميمونى يقول « ما أعلم إنى رأيت أحداً أنظف ثوباً ولا أشد تعاهدا نفسه فى شاربه وشعر رأسه وشعر بدنه ، ولا أتقى ثوباً وشده بياض من أحمد بن حنبل ».

وقال الخلال أخبرنى محمد بن الجنيد أن المروذى حدثهم قال كان أبو عبدالله لا يدخل الحمام ، وكان إذا احتاج إلى النورة تنور فى البيت ، وأصلحت له غير مرة النورة واشتريت له جلداً ليده يدخل يده فيه ويتنور .

قال حنبل رأيت أباعبدالله إذا أراد القيام قال لجلسائه إذا شئتم .

قال عبدالملك الميمونى « لم يكن أحد أنضر ثوباً ، ولا أشد تعاهدا لنفسه فى ثيابه وشعر رأسه وبدنه من أحمد ، وكان يحب الفقراء ويعرض عن أهل الدنيا ويجلس للفقهاء حيث إنتهى به المجلس ولا يتصدر ، حسن الجوار ، لا يخشى فى الله لومة لائم » .

قال المروذى كان الإمام أحمد إذا ذكر الموت خنقته العبرة وكان يقول الخوف يمنعنى أكل الطعام والشراب .

وقال إذا ذكر الموت هان كل شيء من أمر الدنيا انما هوطعام دون طعام ولباس دون لباس وإنها أيام قلائل وما أعدل بالفقر شيئا » .

وقال أريد أن أكون فى بعض تلك الشعاب بمكة حتى لاأعرف وقد بيت بالشهرة إنى لأتمنى الموت صباحاً ومساءا .

قال المروذى قلت لأبى عبدالله إنى لأرجو أن يدعى لك فى جميع الأمصار فقال يا أبابكر إذا عرف الرجل قدر نفسه فما ينفعه كلام الناس .

وقال عبدالله خرج أبى إلى طرسوس ماشيا وحج حجتين أو ثلاثا ماشياً ، وكان أصبر الناس على الوحدة . وقال كان أبى يصلى فى يوم وليلة ثلاثمائة ركعة ، حتى مرض من تلك الأسواط أضعفته فكان يصلى كل يوم وليلة مائة وخمسين ركعة وقال إسحق بن راهوية كنت أنا وأحمد باليمن عند عبدالرزاق وكنت فوق الغرفة وهو أسفل فاطلعت على أن نفقته فنيت فعرضت عليه فامتنع فقلت إن شئت قرضاً ، وإن شئت صلة فأبى فنظرت فإذا هوينسج التكك ويبيع وينفق رواها أبو إسماعيل الترمذى عنه .

وعن أبى إسماعيل قال أتى رجل بعشرة آلاف درهم من ربح تجارته إلى أحمد فأبى أن يقبلها .

قال عبدالله عن أبيه عرض على يزيد بن هارون نحو خمسمائة درهم فلم أقبلها .

وكان الإمام أحمد رضى الله قد ورث عقارا ضئيل القيمة كان يغل فى كل شهر سبعة عشر درهما ، وكان يحاول الاكتفاء به قدر طاقه . وعندماتفجأه حاجة أوتركبه ضرورة كان يعمد إلى العمل الميسر له مادام حلالا ، ولم يكن هذا الإمام الجليل ليستنكف عن أن ينسج أو ينسخ ، بل ويؤجر نفسه للحمالين ، ويفضل هذا كله على قبول الصلات التى كانت تعرض عليه فى سخاء ، حتى عندما تأتى من بعض شيوخه كعبدالرزاق ، كما رفض رفضاً باتاً أن ينال شيئاً من الصلات التى كان الواثق يصله بها ويفرض عليه قبولها ، ومن باب أولى فإنه كان يرفض كل عمل يربطه بنظام الحكم ويشركه فيما يقوم عليه أو يلتبس به .

زوجاته وأولاده .

قال الخلال أخبرنا المروذى أن أبا عبدالله قال ما تزوجت إلا بعد الأربعين .

قال زهير بن صالح بن أحمد « تزوج جدى بأم أبى عباسة بنت الفضل من العرب فلم يولد له منها غير أبى ثم ماتت .

قال المروزى سمعت أبا عبدالله يقول «أقامت معى أم صالح ثلاثين سنة فما اختلفت أنا وهى فى كلمة » .

وقال زهير لما ماتت عباسة تزوج جدى بعدها امرأة من العرب يقال لها ريحانة فولدت له عبدالله وحده » .

وفى هذا نظر ، لأن عبدالله ولد للإمام أحمد وله خمسون سنة أى بعد زواجه من أم صالح بعشرة أعوام ، وفى رواية المروزى « أقامت معى أم صالح ثلاثين سنة الخ» كما أن من المعروف أن الإمام أحمد لم يتزوج إلا بعد أن قارب الأربعين .

قال زهير بن صالح لما توفيت أم عبدالله اشترى «حسن» فولدت منه زينب ثم الحسن والحسين توأماً وماتا بالقرب من ولادتهما ثم ولدت الحسن ومحمد فعاشا حتى صارا من السن إلى نحو من الأربعين ثم ولدت بعدهما سعيداً .

قضية المحنة :

نشأت هذه المحنة التى حملت اسم «خلق القرآن» من ان المعتزلة الذين كان لهم وقتئذ الحظوة لدى المأمون والغلبة الفكرية عليه كانوا ينفون الصفات عن الله تبارك وتعالى ورأوا أن التعبير السارى عن أن القرآن «كلام الله» يوحى بإثبات صفة ما ، فذهبوا إلى أن القرآن «مخلوق» ولم يعدموا الحجج من المنطق أو من تأويل بعض آيات القرآن الكريم مايعززون به دعواهم وما يجعلهم يرون أن هذه المسألة هى من مسائل العقيدة الكبرى لأنها تتعلق بالله تعالى ، ومن ثم كان إصرارهم عليها وتمسكهم بها وإقحامهم أنفسهم فى معركة ضارية بدأت أولا بعزل كل الذين يختلفون معهم فى ذلك من المناصب ، ثم تطورت إلى مناظرة الشيوخ والعلماء وانتهت إلى الزام كل الشيوخ والعلماء القول بذلك وتهديد كل من يرفض لاضطهاد قد يصل إلى حد القتل .

ومات المأمون قبل أن تصل الفتنة إلى مرحلتها الحاسمة ، ذلك أنه كان يؤثر المناظرة ، وأن هدد قبيل موته بحمل المخالفين على السيف . واستجاب كل الذين طولبوا القول لما أراد المأمون ، واعترفوا بدرجات متفاوتة ـ بخلق القرآن بحيث لم

يبق فى بغداد فى النهاية سوى أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح فكبلا بالحديد وسيقا إلى المأمون فى طرسوس ليأمر فيهما بأمره . واستشهد بن نوح فى الطريق. قال الإمام أحمد «مارأيت أحداً على حداثة سنه وقدر علمه أقوم بأمر من الله محمد بن نوح . وإنى لأرجو أن يكون قد ختم له بخير . قال لى ذات يوم يا أباعبد الله الله الله إنك لست مثلى . . إنك رجل يقتدى بك . قدمت الخلق أعناقهم اليك لمايكون منك فاتق الله واثبت لأمر الله أو نحو هذا . فمات وصليت عليه ودفنته » .

ومن غير بغداد مات عالم مصر يوسف بن يحيى البويطى صاحب الإمام الشافعى ، وهو فى قيوده بعد أن رفض الإقرار بما يريدون . كما توفى فى سجنه نعيم بن حماد .

وهكذا أصبح على الإمام أحمد بن حنبل أن يواجه وحده العاصفة ، وتبلورت فيه وحده القضية كلها . وكان له من الشهرة والإسم وأمل الناس فيه وتعلقهم به مايجعل موقفه فاصلا . ومن هنا كانت تلك الأهمية التى علقها معاصروه على موقفه . واعتبروه « صاحب المنة على الأمة » وشبهوا موقفه بموقف أبى بكر يوم الردة وعمر يوم السقيفة ولعلهم أيضاً كانوا يستطيعون أن يرقوا به إلى «بدر» عندما قال النبى صلى الله عليه وسلم فى ابتهاله المأثور اللهم أن تهلك هذه العصابة لاتعبد بعد اليوم » .

ولكن المأمون مات وأحمد بن حنبل فى الطريق اليه فأعيد إلى بغداد وأودع السجن فترة ، ثم اتضح أن المأمون أوصى أخاه المعتصم بمتابعة هذه القضية والسير فيها والاستمساك بأحمد بن أبى داود الذى كان يضرم جذوتها ويتولى كبرها . ومن ثم فقد حمل أحمد بن حنبل فى قيوده بعد أن زيدت وضوعفت إلى المعتصم وأحمد بن داود حيث أرادوا مناظرته فكان رده المفحم الذى تمسك به « أعطونى شيئاً من كتاب الله أو سنة رسوله حتى أقول به » .

وكان المعتصم راغباً كل الرغبة فى أن يرضخ الإمام أحمد بحيث لا يحتاج إلى إستخدام القوة ، وحاول معه كل طرق الاسترضاء «يا أحمد والله إنى عليك لشفيق وإنى لأشفق عليك كشفقتى على هرون ابنى ماتقول . فأقول أعطونى شيئاً من كتاب الله أو سنة رسوله » .

ومرة أخرى « يا أحمد أجبنى إلى شىء لك فيه أدنى فرج حتى أطلق عنك بيدى قلت أعطونى شيئاً من كتاب الله أو سنة رسوله فطال المجلس وقام ورددت إلى الوضع الذى كنت فيه » .

وظلت هذه المحاورات والمداورات ثلاث ليال حتى ضجر المعتصم وقال «العقابين[1] والسياط» فجاء الجلادون فقال لهم المعتصم تقدموا فجعل كل جلاد يضرب الإمام أحمد سوطين والمعتصم يقول له شد قطع الله يدك ثم يتنحى ويقوم الآخر والمعتصم يقول فى كل ذلك شد قطع الله يدك فلما ضرب تسعة عشر سوطاً من هذه السياط التى يستنزف كل اثنين منها فوه رجل قال المعتصم « يا أحمد علام تقتل نفسك إنى والله عليك لشفيق ! وجعل عجيف (أحد رجال المعتصم) ينخسه بقائمة سيفه ويقول « أتريد أن تغلب هؤلاء كلهم » وجعل بعضهم يقول ويلك الخليفة على رأسك قائم وقال بعضهم يا أمير المؤمنين دمه فى عنقى فاقتله وجعلوا يقولون يا أمير المؤمنين أنت صائم، وأنت فى الشمس قائم وهو يقول ويحك يا أحمد ما تقول والإمام أحمد لايغير من قوله « أعطونى شيئاً من كتاب الله أوسنة رسوله أقول به .. فيأمر الجلادين بالضرب قارنا الأمر بوصيته « شد قطع الله يدك ! » .

قال صالح قال أبى فذهب عقلى ، فأفقت بعد ذلك فإذا الأقياد قد أطلقت عنى فقال لى رجل ممن حضر إننا كببناك على وجهك وطرحنا على ظهرك بارية ودسناك . قال أبى فما شعرت بذلك وأتونى بسويق فقالوا لى أشرب وتقيأ فقلت لاأفطر ثم جىء بى إلى دار إسحق بن ابراهيم فحضرت صلاة الظهر فتقدم ابن سماعة فصلى فلما أنفتل من الصلاة قال لى صليت والدم يسيل فى ثوبك فقلت قد صلى عمر وجرحه يثعب دماً .

وكانت المدة منذ أن أخذ إلى أن ضرب وخلى عنه ثمانية وعشرين شهراً ، كان المعتصم فيها نهبة بين أن يلتزم بوصية سلفه المأمون وتوجيه مستشاره أحمد بن داود الذى لم يظل يؤكد له إن الإمام أحمد كافر مشرك قد أشرك من غير وجه . . وبين أن يدعه عندما أعجب بشجاعته وأخذته الشكوك فى سلامة القضية كلها .

وفى الوقت نفسه فلم يكن أحمد بن أبى داود ليريد أن يقتل ، فعندما قال أحد أتباع المعتصم يا أمير المؤمنين إضرب عنقه ودمه فى رقبتى قال ابن أبى داود لايا أمير المؤمنين لاتفعل فإنه إن قتل أو مات فى دارك قال الناس صبر حتى قتل فاتخذوه إماما وثبتوا على ماهم عليه ، ولكن أطلقه الساعة فإن مات خارجاً عن منزلك شك الناس فى أمره .

---

(١) هى ، كما يفهم من السياق خشبتان يعلق عليها ، أو يثبت عليها من يراد جلده .

وهكذا انتهى الرأى إلى الافراج عن الإمام أحمد واعلان ذلك على الملأ ، حتى إذا مات مات وهو فى بيته ، قال حنبل ابن اسحق لما أمر المعتصم بتخلية أبى عبدالله خلع عليه مبطنة وقميصاً وطيلساناوخفاً وقلنسوة فبينما نحن على باب الدار والناس فى الميدان والدروب وغيرها وأغلقت الأسواق إذ خرج أبو عبدالله على دابه من دار أبى اسحق المعتصم وعليه تلك الثياب وابن أبى داؤد عن يمينه واسحق بن إبراهيم يعنى نائب بغداد عن يساره ، فلما صار إلى دهليز المعتصم قبل أن يخرج قال لهم ابن أبى داود اكشفوا رأسه فكشفوه يعنى من الطيلسان فقط وذهبوا يأخذون به ناحية الميدان نحو طريق الحبس فقال لهم اسحق خذوا به ههنا يريد دجله فذهب به إلى الزورق وحمل إلى دار اسحق فأقام عنده إلى أن صليت الظهر وبعث إلى أبى وإلى جيراننا ومشايخ المحال فجمعوا وادخلوا عليه فقال لهم هذا هو أحمد بن حنبل إن كان فيكم من يعرفه ، وإلا فليعرفه فقال ابن سماعه حين دخل للجماعة هذا أحمد بن حنبل فإن أمير المؤمنين ناظر فى أمره وقد خلى سبيله وهاهو ذا فأخرج على دابة لاسحق ابن إبراهيم عند غروب الشمس فصار إلى منزله ومعه السلطان والناس وهو منحنى فلما ذهب لينزل احتضنته ولم أعلم فوقعت يدى على موضع الضرب فصاح فنحيت يدى فنزل متوكئاً على وأغلق الباب ودخلنا معه ورمى بنفسه على وجهه لايقدر يتحرك إلا بجهد وخلع ماكان قد خلع عليه فأمر به فبيع ، وأخذ ثمنه فتصدق به » .

وآوى الإمام أحمد بن حنبل إلى بيته ووجه إليه من يبلغ خبره يوماً بعد يوم ، ومن يعالج جروحه ، وكان قد أصيب فى غير موضع وظل أثر الضرب بينا فى ظهره إلى أن توفى وظلت ابهاماه متخلعتين تضربان عليه فى البرد حتى يسخن له الماء . وجعل الإمام أحمد كل من أصابه فى حل الا مبتدع مطبقاً قول الله تعالى « وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم » ومتبعا توجيه النبى صلى الله عليه وسلم بالعفو عن مسطح قائلا العفو أفضل .

وعاد الامام أحمد إلى مجلسه بالمسجد ودرسه حتى مات المعتصم وولى الواثق . وواصل سياسة سلفه فى الأخذ بخلق القرآن ، ولكنه لم يشأ أن يعيد القصة مع الامام أحمد بعد أن رأى أنها أكسبته المهابه والجلال والمحبه والتقدير فأرسل إليه نائبه اسحق ابن إبراهيم برسالة فى موهن الليل « يقول لك الأمير إن أمير المؤمنين قد ذكرك

فلا يجتمعن إليك أحد ولا تساكنى بأرض ولا مدينة أنا فيها فاذهب حيث شئت من أرض الله » .

وأختفى الامام أحمد قال إبراهيم بن هانى اختفى أحمد بن حنبل عندى ثلاثة أيام ثم قال اطلب لى موضعاً قلت لا آمن عليك قال افعل فطلبت له موضعاً فلما خرج قال لى اختفى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الغار ثلاثة أيام ثم تحول .

وظل الامام أحمد على هذا الحال حتى توفى الواثق وولى المتوكل ، فأنهى تلك المأساة ووضع ختامها بعد أن ثبت فشلها وكتب المتوكل إلى اسحق بن إبراهيم برفع الحظر على الامام أحمد واكرامه . وأرسل إليه كتاباً ومعه بدرة وقال للامام أحمد إنه قد صح عند أمير المؤمنين براءة ساحتك وقد وجه إليك بهذا المال تستعين به فأبى أن يقبله وقال مالى إليه حاجة فقال ياأبا عبد الله اقبل من أمير المؤمنين ما أمرك به فإن هذا خير لك عنده فاقبل ولا ترده فانك إن رددته خفت أن يظن بك سوءا فحينئذ قبلها ، ولكنه لم يستطع النوم ، فلما كان السحر أرسل إلى بعض أصحابه ووجههم إلى توزيع المال على من يعلمون من أهل الستر والصلاح ببغداد والكوفة ففرقوها كلها فما بقى فى الكيس درهم ثم تصدق بالكيس نفسه على مسكين .

والحقيقة أن ولاية المتوكل وإن انهت فصل الاضطهاد فى تلك المأساة إلا أنها فتحت فصلا آخر هو فصل الاصطناع فقد حاول المتوكل بكل طريقة أن يجتذب إليه الامام أحمد ويجعله من خلصائه ورفض الامام أحمد ذلك ، بل رفض أن ينال من أحمد بن أبى داود أو يذكره بشىء مع أنه الذى تولى كبر هذه الفتنه وشهد على الامام أحمد أنه «أشرك من غير وجه » وأجبره المتوكل على الذهاب إليه واضطر الامام لأن يذهب ولكنه لم يقبل ضيافة المتوكل ، فلم ينزل فى الدار التى أعدها له ، ولم يأكل من المائدة التى رتبها له ، بل لقد أمرضه هذا كله ، واحتج بهذا المرض فى رفض الأكل والشراب واللقاء ووجه إليه المتوكل بمال عظيم فرده فقال عبيد الله بن يحيى بن خاقان فإن أمير المؤمنين يأمرك أن تدفعها إلى ولدك وأهلك قال هم مستغنون فردها عليه فأخذها عبيدالله فقسمها على أهله وولده ثم أجرى المتوكل على أهله وولده أربعه آلاف فى كل شهر فبعث إليه الامام أحمد أنهم فى كفايه وليست بهم حاجه فبعث إليه المتوكل إن هذا لولدك مالك ولهذا فأمسك .

ولما طالت العلة به أرسل المتوكل ابن ماسويه الطبيب فزاره ثم عاد إلى المتوكل وقال إنه ليست به علة فى بدنه إنما هو من قلة الطعام والصيام والعبادة. فسكت المتوكل.

وأمر المتوكل بشراء دار للإمام أحمد ولكن الامام رفض ذلك قائلا إنما يريدون أن يصيروا هذا البلد لى مأوى ومسكناً قال صالح فلم نزل ندفع شراء البيت .

وأكربت هذه الرعاية الامام أحمد كرباً شديداً حتى كان يبكى ويقول سلمت من من هؤلاء ستين سنة حتى إذا كان فى آخر عمرى بليت بهم والله لقد تمنيت الموت فى الأمر الذى كان (أى فى فتنة المعتصم) وانى لأتمنى الموت فى هذا وذلك أن هذا فتنة الدنيا وذلك فتنة الدين ثم جعل يضم أصابعه ويقول لو كانت نفسى فى يدى لأرسلتها ويفتح أصابعه .

وكان المتوكل يوجه فى كل وقت يسأل عن حاله ويأمر لآله بالمال دون أن يعلم الامام أحمد بذلك . وحسن رأيه فى الامام أحمد بعد مارأى من صدوده حتى رفض فيه كل الوشايات وعندما قالوا له إنه لايأكل من طعامك ، ولا يجلس على فراشك ويحرم الذى تشرب قال لهم « لو نشر المعتصم وقال فيه شيئاً لم أقبل منه » .

ولما تأكد المتوكل من عقم كل محاولاته اصطناع الامام أحمد أو تقريبه سمح له بالعودة وأذن له فى الانصراف فجاء عبيد الله بن يحيى وقت العصر وقال للامام أحمد إن أمير المؤمنين قد أذن لك ، وأمر أن تفرش لك حراقة[1] تتحدر فيها فقال أبو عبدالله أطلبوا لى زورقا فأتحدر فيه الساعه فطلبوا له زورقاً فاتحدر من ساعته .

قال حنبل ، فما علمنا بقدومه حتى قيل لى إنه قد وافى فاستقبلته بناحية القطيعه وقد خرج من الزورق فمشيت معه فقال لى تقدم لايراك الناس فيعرفونى فتقدمت بين يديه حتى وصل إلى المنزل فلما دخل ألقى نفسه من التعب والعياء .

وكان فى حيائه ربما استعار الشىء من منزلنا ومنزل ولده فلما صار إلينا من مال السلطان ماصار امتنع عن ذلك .

وانتهى بذلك أمر المحنة بعد أن استمر أربع عشرة سنة ثبت لها الامام أحمد ابن حنبل ثبات المؤمنين الصادقين .

---

(١) أى سفينة خفيفة خاصة .

وقد وقف الامام أحمد رضى الله عنه موقفين جديرين بالتأمل والتقدير .

الأول : موقف الصلابة والبطولة وايثار الموت على التفريط أو التسليم ، وأن « التقية » لايمكن أن تقبل من الامام الداعيه القدوة وان قبلت من سواد الناس وجماهيرهم .

والثانى : العبارة التى أجمل فيها الامام أحمد رضى الله عنه رده على هؤلاء المعتزلة فرسان الكلام وأئمة الجدل . فقد رفض أن يدخل فى نقاش ، وتمسك بصيغه واحدة محددة لالبس فيها « أعطونى شيئاً من كتاب الله أو سنة رسوله حتى أقول فيه » وقد أجمل الامام أحمد فى كلمته هذه المذهب الأمثل والعقيدة السليمه ، فما لم يأت القرآن أو الحديث بشىء فى هذا المجال ، فإن الجدل والرأى وإعمال الفكر مستبعد تماماً ، ولامحل له لأنه يتعلق بصفات الله عز وجل . وهى صفات لايدركها العقل البشرى ولاتخضع لأحكامه أو تصوراته — ولو جاز أن يهتدى إليها العقل لما كان ثمة حاجه لإرسال الرسل وبعثة الأنبياء ولجاز أن يقوم بهذا الفلاسفه أو العلماء . فالذين يتصورون أن العقل البشرى يستطيع أن يدرك صفات الله تعالى ، إنما يطعنون الدين ويحاولون هدمه وخدع الناس بمفترياتهم (ومايخدعون إلا أنفسهم ومايشعرون) .

وكل ماسوى الايمان القلبى فى هذا المجال فهومجازفة خطرة ، وأخذ بأقيسة باطلة . واعتماد على براهين عاجزة أو فاسدة ، وتوريط للنفس فى متاهات دون هدى أو دليل ، ولعل الامام أحمد رضى الله عنه كان يستطيع أن يفند هذه الدعوى ويدخل فى الجدل ولكنه آثر أن يقف موقف أهل السنة ، وأن يضع — فى هذه المسألة الكبرى من مسائل الاعتقاد — السنة والاتباع فى مواجهة الهوى والابتداع ، لأن هذا الوضع هو الوضع الحاسم فى هذه القضيه — ولأن الاجتهاد مستبعد أصلا فى هذا المجال بحيث لايمكن التفكير فيه كوسيلة للانتصار وكسب الخصوم . فالامام أحمد كان يرى حل المشكله إنما يكون فى « الموقف » الذى وقفه وبالتالى لايكون هناك داع لحل آخر . ولو أراد مثل هذا الحل لما أعوزه ، ولما كان يعجزه أن يقول ما قاله واحد من عامة المسلمين عندما جابه أحمد بن أبى داود « شىء لم يدع إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا أبو بكر ، ولا عمر ، تدعو أنت الناس إليه . . ليس يخلو أن تقول علموه أو جهلوه . فإن قلت علموه وسكتوا عنه وسعنى وإياك من السكوت ماوسع القوم ، وإن قلت جهلوه وعلمته أنت ، فيالكع بن لكع : يجهل النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدون رضى الله عنهم شيئاً وتعلمه أنت » .

كما لم يكن ليدق على ذكاء الامام أحمد وفراسته ماأدركه أحد اتباع الوائق عندما دخل عليه يوماً وقال له « ياأمير المؤمنين أعظم الله أجرك فى القرآن » فقال ويلك القرآن يموت ؟ قال ياأمير المؤمنين كل مخلوق يموت .

كان الامام أحمد رحمه الله يستطيع أن يقول شيئاً كهذا ولكنه لم يكن يريد خلاصاً من محنة أو انتصاراً على الخصوم ولكن تقريراً لمبدأ، وتحديداً لموقف وكيف يميل الامام أحمد ويجادل فى عقيدة وهو الذى يحمل بين جنبيه كتاب الله وتمتزج روحه بالسنة المطهرة ومن هنا قال « أعطونى شيئاً من كتاب الله أو سنة رسول الله حتى أقول به » .

وفى كلام الامام أحمد ، وفى كثير من كتبه ووصاياه بين أن الموقف السليم هو ترك الجدل والمراء واطراح الخصومات والأهواء والوقوف عند السنة المطهرة ، وعدم افساد القلوب بهذه الشبه والاستدلال على الله ببديع صنعه وسابغ نعمه بل الاستدلال عليها بخالقها ومبدعها جل جلاله .

ذكر مرضه ووفاته رحمه الله :

قال المروزى : مرض أبوعبدالله ليلة الأربعاء لليلتين خلتا من ربيع الأول ومرض تسعة أيام ، وكان ربما أذن للناس فيدخلون عليه أفواجاً يسلمون عليه ويرد عليهم بيده وتسامع الناس وكثروا ،وسمع السلطان بكثرة الناس فوكل السلطان ببابه وبباب الزقاق الرابطة الأخبار ثم أغلق باب الزقاق فكان الناس فى الشارع والمساجد حتى تعطل بعض الباعة وحيل بينهم وبين البيع والشراء ، وكان الرجل إذا أراد أن يدخل إليه ودخل من بعض الدور وطرر الحاكة وربما تسلق وجاء أصحاب الأخبار فقعدوا على الأبواب وجاءه حاجبه ابن طاهر فقال إن الأمير يقرئك السلام وهو يشتهى أن يراك فقال هذا مما أكره وأمير المؤمنين أعفانى مما أكره ! وأصحاب الخبر يكتبون خبره إلى العسكر والبرد تختلف كل يوم وجاء بنو هاشم فدخلوا عليه وجعلوا يبكون عليه [illegible] لم يؤذن لهم فلما كان قبل وفاته بيوم أو يومين [illegible] فجعلوا ينضمون إليه وجعل يشمهم ومسح بيده [illegible]

[illegible] صدر النهار فصاح الناس وعلت الأصوات بالبكاء [illegible] وامتلأت السكك والشوارع .

قال البخارى مرض أحمد بن حنبل لليليتين خلتا من ربيع الأول ومات يوم الجمعة لاثنتى عشرة خلت من ربيع الأول .

قال صالح وجه ابن طاهر يعنى نائب بغداد بحاجبه مظفر ومعه غلامين معهما مناديل فيها ثياب وطيب فقالوا الأمير يقرئك السلام ويقول قد فعلت مالو كان أمير المؤمنين حاضراً كان يفعل ذلك فقلت أقرىء الأمير السلام وقل له إن أمير المؤمنين قد كان أعفاه فى حياته مما يكره ، ولا أحب أن أتبعه بعد موته بما كان يكرهه فى حياته فعاد وقال يكون شعاره فأعدت عليه مثل ذلك . وقد كان غزلت له الجارية ثوبا عشارياً قوم بثمانية وعشرين درهما ليقطع منه قميصين فأدرجناه فى ثلاث لفائف واشترينا له حنوطا وفرغ من غسله وكفناه وحضر نحو مائة من بنى هاشم ونحن نكفنه وجعلوا يقبلون جبهته حتى رفعناه على السرير .

قال عبدالله بن أحمد صلى على ابى محمد بن عبدالله بن طاهر غلبنا على الصلاة عليه ، وقد كنا صلينا نحن والهاشميون فى الدار .

قال صالح وجه ابن طاهر من يصلى عليه قلت أنا فلما صرنا إلى الصحراء إذا ابن طاهر واقف فخطا إلينا خطوات وعزانا ووضع السرير فلما انتظرت هنيهة تقدمت وجعلت أسوى صفوف الناس فجاءنى ابن طاهر ، فقبض (ابن طالون) على يدى ومحمد بن نصر على يدى وقالوا الأمير فما نعتهم فنحياني وصلى ولم يعلم الناس بذلك — فلما كان من الغد علم الناس فجعلوا يجيئون ويصلون على القبر ، ومكث الناس ماشاء الله يأتون فيصلون على القبر .

وحضر جنازته جمع حاشد لم ير مثله فى جاهلية أو إسلام وقدرته بعض المراجع بألف ألف وثلثمائة ألف ، بينما قدرته مراجع أخرى بسبعمائة ألف، وقيل حضرها من الرجال ثمان مائة ألف ومن النساء ستون ألفاً .

فكانت الجنازة جليلة مهيبة ، وحدثاً فذاً ورزقت من حرص الناس عليها ماجعل الخليفة ، الذى كان غائباً وقتئذ عن بغداد يقول لنائبه (محمد بن عبد الله بن طاهر) « طوبى لك محمد .. صليت على أحمد بن حنبل رحمه الله » .

ولو أردنا تقصى عناصر القوة والثبات فى هذه الشخصية الفريدة لرأيناها كلها تدور حول محور واحد ، ذلك هو التجرد لله ، الذى قام على أركان منها الإيمان العميق

بالله تعالى وأنه وحده الخالق القادر القاهر فوق عباده ، وأن من دونه لايملكون لأنفسهم ، أو لغيرهم شيئاً ومن هذا الإيمان استمد شجاعته وثباته أمام كل القوى الباطشة أو المغريات الدنيوية . ومنها الاقتداء بسيرة النبي ﷺ بحيث أصبحت منهجه فى حياته وسلوكه وأكله وشربه ولبسه وأدبه فقد تشرب السنة واصطبغ بها ، ومنها الانصراف عن زخرف الحياة ومتاعها والرضا بالكفاف والابتعاد عن كل مايضيع الوقت أو يشغل النفس عن العلم والحديث .

وأخيراً ماوهبه الله من توفيق أعانه على أن يلزم نفسه هذا الطريق ، ويأخذها بما يتطلبه من زهد ، وينأى بها عن سفساف الأمور . قال الشافعى خرجت من بغداد فما خلفت بها رجلا أفضل ،ولاأعلم ولاأفقه ولاأتقى من أحمد بن حنبل وقال عبدالرزاق مارأيت أفقه من أحمد بن حنبل ولا أورع وقال الزعفرانى مارأيت أعقل من أحمد ابن حنبل وسليمان بن داود الهاشمى وقال محمد بن إبراهيم البوشنجى مارأيت أجمع فى كل شىء من أحمد بن حنبل ولا أعقل .

بهذه الصفات كان أحمد بن حنبل رجلا عالماً زاهدا ، ورعا قوياً ، من الذين تزيدهم العبادة قوة وهمة فخرج على الناس بهذا الكتاب الجامع « المسند » ليكون للناس إماما .

رحم الله أبا عبدالله رحمة واسعة وأثابه بما قدم من خلق رفيع وعلم غزير تقبس منه الأجيال جيلا بعد جيل حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

بسم الله الرحمن الرحيم

ترجمة المؤلف

ولد المؤلف رحمه الله فى قرية من قرى مصر ومن أعمال مديرية الغربية هى قرية شمشيرة المطلة على النيل واجمل ما فيها سلم حجرى يمتد من المسجد إلى النيل ليتوضأ من يريد الوضوء من ماء النهر .

وقبل أن تضعه والدته رأت فى منامها من يقول لها إذا وضعت فسم مولودك (أحمد) واحرصى على تحفيظه القرآن .

وشب الصغير وتجاذبته أهواء القرية ، وكان والده فلاحاً يحرص على زراعة أرضه وأراد أخو المؤلف أن يحمل الصغير على أن يعمل معه فى الفلاحة والزراعة ، ولكن أمه لم تنس الرؤيا التى رأت وتشبثت به دون الأرض وقالت خذوا الأرض وما فيها واتركوا نشأة ولدى أنشئه على ما أريد ، وكان والده الشيخ عبد الرحمن البنا رجلا صالحاً لا يقف ضد رغبة طيبة فوافق والدة الصغير على رأيها .

والتحق الصبى بكتاب القرية ، ونذرته والدته للقرآن والعلم ، وحفظ القرآن الكريم وتعلم أحكام التجويد على يد معلم القرية الذى جرى العرف على أن يطلق عليه فى قرانا إسم (سيدنا) وهو الشيخ محمد أبو رفاعى وكان كفيفاً تقياً يفيض وجهه اشراقاً وبشرا .

وجاءت المرحلة الثانية ، مرحلة أن يدرس الصبى علوم الشريعة بفروعها من الفقه والتفسير والحديث وغيرها ولا يتيسر ذلك إلا فى الأزهر والمعاهد الدينية .

ولما كانت القرية أقرب إلى الاسكندرية فهى فى مواجهة بلدة ادفينا وقريبة من مدينة رشيد فقد تهيأ الصبى تهيؤ المغتربين فى طلب العلم فما على والدته إلا أن تهيىء له (الزوادة) وهى الخبز وبعض ما يتيسر لها من طعام تضعه فى سبت من الجريد أو (قفة) من الخوص .

طلبه العلم

وسافر الطالب إلى الاسكندرية ولم يكن معهدها الدينى قد أنشئت مبانيه الحديثة ولكن طلبة المعهد كانوا يدرسون فى مسجد (الشيخ) وكان هو معهد الاسكندرية بمدارسه ومذاهبه الأربعة (الحنفى) و (المالكى) و (الشافعى) و (الحنبلى) وما زال مسجد الشيخ موجوداً حتى الآن قريباً من ميدان المنشية.

وكان المسجد هو مسكن الطالب ومأواه، فيه يدرس، وفيه ينام، وفيه يقوم ساجداً راكعاً لله.

تعلمه صناعة الساعات

ولما تذوق العلم وتقدم فى الدراسة فكر فى المستقبل وما يكون بعد اتمام دراسته وأن كل عالم من العلماء كانت له صناعة بجانب علمه يتكسب منها لئلا يكون العلم وسيلة لطلب الرزق.

ويسر الله له بركة اخلاصه وصدقه مع الله فالتحق بأكبر محل فى الاسكندرية لاصلاح الساعات وبيعها هو محل الحاج محمد سلطان وكان يفرغ من دراسته يومياً فيسرع إلى صنعته التى أحبها وعشقها حتى أتقنها وبرع فيها وأصبحت بعد ذلك حرفة له وتجارة ومن هنا جاءت شهرته (بالساعاتى).

اختياره بلدة المحمودية لاقامته

وعاد إلى القرية عالما صانعاً فتزوج منها وسار بأهله إلى بلدة (المحمودية) التى أعجبته عبر رحلته إلى الاسكندرية ورجوعه منها إلى قريته.

وفى المحمودية وهى من أعمال مديرية البحيرة والقريبة من مدينة دمنهور وضع رحاله واستقر به النوى، ورحب به عالمها وأمامها الشيخ محمد زهران وكان كفيفا بارع الذكاء زاخراً بالعلم والعرفان، وأصبحا صديقين حميمين، يتدارسان العلم، ويتعمقان فى البحث والتحقيق، وكانت مكتبة المؤلف زاخرة بأمهات الكتب فى الفقه والتفسير والحديث وجميع علوم الشريعة وفنونها.

قراءته المسند

وفى سنة أربعين وثلاثمائة وألف من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية ، وهى نهاية الحلقة الرابعة من عمر المؤلف أخذ فى قراءة المسند - بعد أن يسر الله له قراءة الكتب الستة وغيرها من الأصول المعتبرة عند المحدثين - فوجده بحراً خضماً يزخر بالعلم ويموج بالفوائد فخطر له أن يرتبه وتهيب العمل فيه واستعظم التبعة ولكن الدافع كان قوياً والرغبة إلى الله صادقة فأخذ رأى ذوى البصائر الثاقبة واستشار من لايتهمه ديناً وأمانة وصدقاً ونصيحة وهو صديقه وشيخه العالم العامل الصالح الورع الشيخ محمد زهران ، فكل أشار بما قوى العزيمة فبدأ العمل فيه داعياً الله تعالى أن يجعله خالصاً لوجهه ويتقبله ويعين على نجزه بصدق النية فيه [1] .

وقد فرغ المؤلف من تبييضه فى نهاية عام ١٣٥١ هجرية بعد أن قرأه بتمامه أربع مرات ثم قرأه المرة الخامسة وهو يقوم بتصحيحه عند الطبع حتى منتصف الجزء الثانى والعشرين .

هجرة الاسرة إلى القاهرة

ولما كانت هجرة المؤلف إلى الاسكندرية فى طلب العلم كذلك كانت هجرة الاسرة كلها إلى القاهرة فى طلب العلم وذلك حين احتاج النجل الأكبر للمؤلف الإمام الشهيد حسن البنا إلى الالتحاق (بمدرسة) دار العلوم وأراد المؤلف التعرف إلى علماء الأزهر الشريف بالقاهرة والالتقاء بالمحدثين الوافدين من أقطار العالم الإسلامى .

وهكذا وفدت الاسرة كلها إلى القاهرة وعكف المؤلف على كتابه الذى أصبح شغله فى الحياة وحظه منها وأصبح مكتبه فى عطفة الرسام على ناصية مسجد الفكهانى بالغورية مقصد العلماء والباحثين ، ومطلب المحققين والمحدثين لايبرحه إلا للصلاة فى مسجد الفكهانى أو مسجد المؤيد .

ثم دفع بمؤلفه المبارك إلى المطبعة التى لاتبعد عن مكتبه إلا خطوات حيث تقع

(١) أنظر مقدمة المؤلف فى كيفية العمل فيه فى الجزء الأول صفحة ١٣ ، ١٤

فى شارع الفحامين المقابل لعطفة الرسام وتأتيه (مسودات) المطبعة ملزمة ملزمة فيقوم على تصحيحها بنفسه ويدقق فى ذلك أشد الدقة حتى يتفادى كل ما يمكن أن يتفاداه من أخطاء .

وكما كان يفد على مكتبه جلة العلماء ، كذلك كانت تحضر مجموعات من طلبة العلم فى الأزهر الشريف ممن شغفوا بالسنة وأولعوا بدراستها ، حتى اضطر المؤلف أن يقسم الجزء الواحد من الكتاب إلى أربعة أقسام حتى ييسر على طلبة العلم اقتناءه ويخفف عنهم مقدار ثمنه .

صفة الشيخ الخلقية والخلقية

وكان الشيخ رحمه الله ربعة لا بالطويل ولا بالقصير نحيفاً قمحى اللون يتكفأ فى مشيته ويغض بصره وكان فى لحيته شعرات سوداء وكانت ثيابه غليظة متواضعة يلبس الجبة والقفطان ويعتم ، عليه سكينة ووقار .

وكان زاهداً ورعاً منصرفاً عن الدنيا راغباً فى الآخرة لا يخوض فيما يخوض فيه الناس ولا يتقيد بما يعملون ويشترعون حتى كان لا يقدم ساعته حسب التوقيت الصيفى حين كان يفعل الناس ذلك ويقول مالى وللناس إنما أتعامل مع الله جل وعلا .

شعوره بالمرض

وعندما كان الشيخ رحمه الله يعمل فى الجزء الثانى والعشرين وقد أتم كتاب السيرة النبوية والأبواب المتعلقة به من ذكر أولاده صلى الله عليه وسلم وآل بيته الطاهرين وزوجاته أمهات المؤمنين وبدأ العمل فى أبواب مناقب الصحابة رضى الله تعالى عنهم شعر بمبدء المرض وعرضت عليه الحضور إلى منزلى لنكون جميعاً فى خدمته ونقوم على مطالبه فاستمهلنى قائلا سأفعل ذلك إن شاء الله عند لزومه وظل يكتب فى باب المناقب حتى وصل باب ماجاء فى جرير بن عبد الله البجلى وكنت أمر عليه فى مكتبه فى فترات متقاربة وبعد صلاة العشاء من يوم الأحد ٥ من جمادى الأولى سنة ١٣٧٨ هجرية الموافق ١٦ نوفمبر سنة ١٩٥٨ ميلادية مررت به فابتدرنى بقوله غداً إن شاء الله بعد أن تصلى الفجر احضر الى مبكراً بعربة تنقلنى إلى بيتك ثم طلب الوضوء لصلاة العشاء فقدم إليه فتوضأ ثم نوى الصلاة .

ما قرأه فى هذه الليلة فى صلاته من القرآن

فلما أتم قراءة الفاتحة فى الركعة الأولى قرأ قوله تعالى (كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) .

وقرأ بعد الفاتحة فى الركعة الثانية (لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً ، وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور) .

ودخل نفسى من ذلك شىء ، وبكرت صبيحة الاثنين بعربة ركبها ومعه الأصول الباقية من الفتح الربانى بخط يده وبعض مراجع كتب الحديث التى كان يعمل فيها فى الجزء الثانى والعشرين ، ثم جلس فى حجرة النوم وأشار بأن تصف المراجع فى الشباك القريب منه بالحجرة ومعها الأصول وجعل يشير إليها ويتحدث عما أنجزه حتى الآن .

وطيلة يوم الأثنين وهو يحدثنا حديث الواثق المؤمن وعرض لنشأته وصباه وبلدته وكان أصح ما يكون صحة وأتم ما يكون عافية حتى نسيت ما داخل نفسى من شعور يوم الأحد مساء وقلت لقد من الله على الشيخ بالعافية وظننته سيمكث معنا طويلا يمتعنا بهذا الحديث وينفعنا بهذا العلم ولكن قدر الله كان سابقاً وأمره كان نافذا .

وفى يوم الثلاء انشغل بربه وانصرف عنا وكان يطلب الوضوء وينظر فى ساعته إذا حضر وقت الصلاة فيؤديها حسبما استطاع .

وفاته إلى رحمة الله

وقبض [illegible] الأربعاء ٨ من جمادى الأولى سنة ١٣٧٨ الموافق ١٩ نوفمبر سنة ١٩٥٨ [illegible] راضياً مرضياً إن شاء الله تعالى عن سبع وسبعين سنة وبضعة شهور .

obeikandi.com

وشيعت جنازته وتبعها أهل الفضل والعلم وجماهير غفيرة إلى مسجد الرفاعى بالقلعة ، وأم الناس فى الصلاة عليه الشيخ سيد سابق ، ودفن بقرافة الإمام الشافعى رضى الله عنه بجوار ابنه الإمام الشهيد حسن البنا رحمهما الله .

رغبتى فى الاتصال بوالدى رحمه الله

ورغبت أن أتصل بسبب إلى والدى غير النسب ، وبسند إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو شرف الدنيا وعز الآخرة إن شاء الله فطلبت إلى تلميذ والدى العالم الفاضل الشيخ على المؤيد ، أن يجيزنى فتفضل جزاه الله أحسن الجزاء وأجازنى هذه الأجازة وقد استشرت من لا أتهم دينا وأمانة وورعاً فأشاروا باثباتها هنا ، أسأل الله تعالى أن تكون مقبولة عنده خالصة لوجهه الكريم .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رافع الذين آمنوا والذين أوتوا العلم درجات. والصلاة والسلام على من أرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، القائل من تمسك بسنتي عند فساد أمتي فله أجر مائة شهيد. وعلى آله الأطهار وصحابته الأخيار.

وبعد فإن الإسناد في الرواية من خصائص أمة سيد الأنام وبقاء سلسلته شرف لها لاتصالها بنبيها صلوات الله عليه وعلى آله، وإن من طرق الرواية الإجازة، وهي من حسنات الصالحين، والعمل بها مشهور بين المحدثين.

ولقد أحسن الظن في أخي في الله فضيلة الشيخ العالم الفاضل التقي عبد الرحمن بن أحمد البنا أجزل الله مثوبته وطلب مني إجازته، فلم تسعني مخالفته، وإن لم أكن أهلا لذلك. فأقول قد أجزته بما تجوز لي روايته من معقول ومنقول وفروع وأصول، وأخص من ذلك ما خصه شيخي التقي الزاهد الورع الحجة الشيخ أحمد

ابن عبد الرحمن البنا في اجازته لي، وذلك مسند الامام

احمد بن حنبل الشيباني، الذي رتبه وشرحه وسماه الفتح

الرباني، فقد اجازني بروايته عنه. وانا اجيز نجله الكريم

بروايته عني، عن والده، عن شيخه مفتي وادي الفرات

العلامه السيد محمد بن سعيد العرفي الحسني. كما اجازه بذلك

مفتي الديار الشامية السيد محمد بدر الدين الحسني، عن

السيد ابي الخير الخطيب، عن الشيخ عبد الرحمن الكزبري صاحب

الثبت الشهير عن والده محمد، عن احمد بن محمد الحنبلي حفيد

ابي المواهب، عن والده عبد الباقي، عن عمر القاري، عن

البدر الغزي، عن القاضي زكريا الانصاري، عن عبد الرحيم

ابن محمد الحنفي، عن ابي العباس احمد الجوخي، عن زينب بنت

مكي، عن حنبل الرصافي، عن هبة الله الشيباني عن الحسين

التميمي، عن ابي بكر القطيعي، عن عبد الله بن احمد، عن والده

الامام احمد بن حنبل رحمهم الله تعالى

هذا واوصي الاخ المجاز كما اوصي نفسي بالتقوى وارجو

ان لا ينساني من صالح دعائه. واسأل الله لي وللاخ المجاز

الخاتمة الحسنى، وان يوفقنا جميعا الى ما يرضيه عنا انه سميع مجيب

حرر في اول شهر شعبان المبارك سنة ١٣٨١ كتبه علي بن نايف الشحود